خوارق العادات
في الاسلام (*)

اطوار البشر والمعجزات - المعجزات العقلية والحسية - علم الغيب - التنويم المغنطيسي
استحضار الارواح - الكهانة - الاحلام - السنن الكونية والمعجزات
جرائم الامم والافراد والعقوبات الالهية عليها

أتى على الانسان حين من الدهر كان في طور أشبه بطور الطفولية ، فسادت الأوهام والخرافات على العقول البشرية ، وكثر بين الناس الدجالون والمحتالون والسحرة والمشعوذون ، وملكوا نواصي الناس بافكهم وكذبهم ، وصاروا يتصرفون في جميع أمورهم ، فما كان أحد يقدم على عمل ما إلا بعد مشاورتهم ، والاسترشاد برأيهم ، فكان الناس في أيديهم كالانعام بل هم أضل سبيلا : عقول فاسدة ، وآراء كاسدة ، وأفهام ساذجة ، وبصائر قاصرة ، وجهل وأوهام ، وخرافات وخزعبلات ، تقيمهم وتقعدهم ، وتفرحهم وتحزنهم ، وتخيفهم وتزعجهم ، فاذا برق بارق من السماء ارتجفوا واضطربوا ، وإذا نزلت صاعقة من السحاب ماجوا وارتبعوا ، وإذا أصابهم مرض ما علقوا لدفعه الاوراق ، أو استنجدوا براق ، وإذا نظر إلى بنيهم ناظر حوطوهم بالتمائم ، وأطلقوا حولهم بخور المباخر ، وإذا كسفت الشمس أو خسف القمر صاحوا ودقوا الدفوف وقرعوا الطبول لإرضاء آلهتهم على مايزعمون — إلى غير ذلك من الاوهام والأباطيل .

هذا كان شأن الجماهير إلا من شذ منهم وندر ، وأضاء الله عقله بشيء من نور العلم ومع ذلك ما كان يسلم عقله من جميع ترهاتهم

سار الله تعالى مع تلك الأمم في هذا الطور سير الأب الحكيم مع أبنائه في طفوليتهم فأكثر فيهم الهادين والمرشدين والأنبياء والمرسلين فأكثروا من وعظهم ونصحهم وانذارهم ووعدهم ووعيدهم . وخذلوا من كانوا متسلطين على عقولهم من

(*) بقلم الدكتور محمد افندي توفيق صدقي الطبيب بسجن طره

السحرة والمشعوذين بما أجراه الله على أيديهم من المعجزات ، وأظهره لهم من الآيات البينات ، التي تركت السحرة مفلوبين في أمورهم ، حيارى في شأنهم ، ولولا تلك الآيات لما قدر الانبياء على تخليص أممهم من حبائل الدجالين والمحتالين ، بل الابالسة والشياطين ، فكانوا إذا ظهرت تلك المعجزات بهرت منهم العقول وحيرت الافكار وأعجزت السحرة وأدهشت الناس فيخضع المستعد منهم لهيبة من ظهرت على أيديهم فيؤمنون له ويتبعونه ويطيعونه فيما يأمرهم به (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) ثم يأخذ الله المعاندين الذين خالفوا ضمائرهم وكابروا عقولهم وأبصارهم ولم يميزوا بين الغالب والمغلوب ، والصادق والكذوب ، بأنواع من العقوبات تناسب أحوالهم جزاء لهم وعبرة لغيرهم لعلهم يرشدون

مضت الأيام والأعوام ، وتوالت القرون والأجيال ، وانتقل البشر من حال إلى حال ، وارتقوا من طور إلى طور . فأخذت العقول تستنير ، والأفكار تنمي ، والسحر يضمحل ، والانبياء من بينهم تقل ، حتى ختمت النبوة ببعثة سيد الانبياء والمرسلين ، وأكبر الهادين والمصلحين

كان البشر في عهد البعثة المحمدية ، قد خرجوا من طور الطفولية إلى سن الرشد فأصبحوا لا يناسبهم من الدلائل والبراهين ما كان يناسبهم في القرون الأولى وقل فيهم تأثير المحتالين والدجالين والسحرة والمشعوذين . وصاروا يرجون الهداية من طريقها ، فساعدهم الاسلام على ذلك ونهج بهم منهجا لم يسبقه به دين من قبل ، فجعل الحجج العلمية والدلائل العقلية رائده في جميع دعاويه وعليها معتمده في كل مبانيه ، وقلل من شأن المعجزات الحسية بقدر الامكان ، حتى لا تكون عقبة في رقي عقل الانسان في مستقبل الزمان ، (وما كان لرسول ان يأتي بآية إلا باذن الله لكل أجل كتاب * يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فان البشر في عهد النبوة المحمدية ، أخذوا يدركون قيمة المعجزات الحسية ، وأنها لا علاقة بينها وبين دعوى النبوة ، وأنها لا يسهل تمييزها عن غيرها من أعمال السحرة والمشعوذين ، والصناع الماهرين ، وأنها إن أقنعت تلك العقول القديمة وأرهبت تلك النفوس وهي صغيرة وحملتها على الايمان فانها أصبحت لا تقنع العقل قليلا ولا تزيد الأمور إلا تعقيدا . وأن الدليل

إن لم يكن له من العقل أكبر نصير فهو أضعف ضعيف. ومن كان يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم تلك المعجزات فما كان يريد بها إلا الاعنات والاعجاز ، والسخرية والاستهزاء ، وإلا فان أمامه من البراهين والآيات ما يشفي علة النفوس ويروي غلة العقول (أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وأما ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات الحسية فلم يكن يراد به إلا إفحام المعاندين المستهزئين ، والزيادة في تثبيت ضعفاء المهتدين . وقد كان جل اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم في إثبات دعوته على القرآن وحده . كما يتضح ذلك لمن تدبر آياته . فانه هو المعجزة التي تتسم مع الدعوة ، وتعلو بالعقل إلى مستوى العلم والفهم ، وتناسب حال الاجيال من بعده فلا تقف عقبة في سبيل نظرياتهم وتفكيرهم ، ومعلوماتهم واختراعاتهم ، ولا تلتبس عليهم بحيل الدجالين وتدليس المحتالين ، ولا بكذب القصاصين وافك الراوين ، وتخيل الواهمين واختراع الكاذبين ، بل تساعدهم على البحث وتحضهم على التفكير والنقد والتمحيص والاستدلال والاستنتاج

فبعثة محمد صلى الله عليه وسلم ختم عصر العجائب والغرائب وبدأ عصر العلم والعقل فهو الحد بين العصرين فلذا كانت معجزاته تشمل هذا وذاك وكان أجلها وأكبرها والباقي منها وهو القرآن مناسبا لزمنه عليه السلام ولكل ما أتى ويأتي بعده من الازمان فلا يناسبها غيره

وكما ختم عصر المعجزات ، وتمت النبوات ، كذلك أغلق باب الكهانة فكأن الله تعالى في العصر الأول والبشر في طور الطفولية كان يتجلى لأبصارهم وفي العصر الثاني وهم في طور الرجولية صار يتجلى لبصائرهم أكثر مما يتجلى لأبصارهم . فان بصائرهم في العصر الأول كانت ضعيفة لصغرها فلا تتحمل أن تراه فلذا كان يظهر لأبصارهم بأنبيائه ورسله الكثيرين وآياته ومعجزاته وبعض مخلوقاته كالجن الذين كانوا يسترقون السمع من الملأ الاعلى فيخبرون به بعض البشر وذلك لان الأب مع أطفاله يكثر التكلم معهم وتأديبهم وتهذيبهم وترغيبهم وترهيبهم ومكافأتهم بالماديات أو معاقبتهم على حسب ما يبدر منهم فاذا صاروا رجالا كف عن ذلك

وا كتفى بابداء بعض تعاليمه العامة وإرشاداته المكتسبة من طول التجربة والاختبار وتركهم يستعملون عقولهم فيما يرونه صالحا لهم كذلك فعل الله تعالى (وله المثل الاعلى) بعد أن بلغ الانسان رشده أعطاه الشريعة العامة والقواعد الثابتة وأباح له التصرف في الامور بحسب ما يرشده إليه عقله فبعد أن كان يوحي للأمم السابقة كبني اسرائيل مثلا في كل جزئية من جزئيات الامور اكتفى الآن بما في القرآن الشريف من القواعد العامة والاصول الثابتة فانها مع ما يوحيه إلينا العقل كافية لهدايتنا في جميع الامور بعد أن بلغنا رشدنا

لذلك أغلق الله تعالى باب الوحي والمعجزات والكهانة وأخبرنا بذلك كله صريحا في الكتاب العزيز فلم يبق لمحتال علينا حيلة ولا لمشعوذ أدنى وسيلة و بذلك خلص العقل البشري من الأوهام والخرافات والترهات ، وأصبح طريق العلم أمامه واضحا لا يحجبه عنه حاجب ولا يقف أمامه فيه واقف . ولكي لا يبقى هناك ثلمة في نفس أحد من المؤمنين يصل إليه منها شيطان من الشياطين نص الكتاب العزيز نصا صريحا لا يقبل التأويل على أن الغيب علمه عند الله لا يعلمه إلا هو وأن الأمور كلها بيد الله يصرفها كما يشاء لا يراعي فيها مجاملة أحد من عباده فقال مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون) ومثل ذلك في القرآن كثير يصعب ان يستقصى في مثل هذه المقالة

يقول واهم إذا كان الغيب لا يعلمه أحد إلا الله فما بال التنويم المغنطيسي واستحضار الارواح والأحلام الصادقة تكشف كثيراً من الغيب وكانت الكهانة تكشف كثيرا منه من قبل ؟

فاعلم أن الشخص في حالة التنويم المغنطيسي لا يمكنه أن يعلم شيئا ما لم يوجد فلا يمكنه أن يطلع على الغيب أي لا يمكنه أن يعرف شيئاً ما لم يكن له وجود وهو في تلك الحالة المخصوصة وغاية الأمر أنه لا يحجبه عن رؤيا بعض الموجودات حاجب لصفاء روحه عن كدورة المادة إذ ذاك ومن هنا تتسع دائرة معلوماته عن بعض

الموجودات فيمكنه أن يخبر بالقياس أو الاستنتاج مما علم عن بعض أشياء قبل وقوعها كالأمراض التي ستصيبه مثلا بعد وقوفه على حالته الجسمية كما يخبر الطبيب عن بعض الاشياء المرضية قبل حصولها لمعرفته الأمراض واسبابها ومسبباتها وأعراضها وكما يخبر الفلكي عن الكسوف والخسوف قبل وقوعهما أي إن الشيء إذا لم يكن موجودا فلا يمكن العلم بوقوعه إلا قياسا أو استنتاجا او استنباطا من موجود و إلا فالغيب (وهو ماغاب عن الانسان لعدم وجوده مطلقا أو لعدم وجودما يستدل به عليه) علمه عند الله لا يعلمه إلا هو ولا يعلمه أحد من عباده إلا إذا أطلع هو (جل شأنه) أحدا على شيء منه فيخبر به ويفشو بين الناس كما أطلع الله رسله (الملائكة والانبياء) على بعض الغيب فعلموه وعلمه الناس منهم وكما كان يعلم بعض ذلك بعض الجن قبل إبطال الكهانة واستراق السمع من الملأ الاعلى فيخبرون به بعض البشر فيخيل للناس أنهم يعلمون الغيب والحقيقة أنهم أخبروا بما أخبروا به لصلة بينهم وبين عالم الأرواح وإن كانوا يكذبون في كثير مما أخبروا به . ولنا الآن في مسألة استحضار الأرواح دليل قاطع حسي على إمكان اتصال البشر (ومنهم الكهنة) بالعوالم الاخرى الروحية (ومنهم الملائكة والشياطين) وبذلك يمكن البشر الاطلاع على بعض المغيبات من هذا الطريق كما يمكنهم أن يطلعوا على بعضه في طريق الاحلام الصادقة، فانها من بقايا الوحي إلى بعض النفوس الصافية، وفيها يُري الله تعالى بعض عباده شيئا مما سيكون بإرادته كما كان يوحي إلى الانبياء من قبل وليس للبشر في معرفة شيء من ذلك اختيار بل هو شيء يفعله الله متى شاء وكيف شاء

أما علم أحد من تلقاء ذاته (أي بدون وحي أو سماع من غيره) بغيب حقيقي (أي لا يستدل عليه من موجود) فهو محال إلا على الله الفاعل المختار الذي يفعل ما يشاء متى شاء وكما شاء ودعوى معرفة أحد غيره الغيب دعوى باطلة كاذبة ولا يمكن لأحد الجزم بوقوع شيء من الغيب باليقين وما يقع منه مطابقا للخبر فلا يكون إلا اتفاقا مالم يكن موحى به

فالغيب المنفي علمه في القرآن الشريف هو هذا الذي ذكرناه أي الغيب الحقيقي لا مطلق الغيب . فان الغيب أمر اعتباري فما غاب عنك لا يغيب عن

غيرك وما لم تعرفه لجهلك بشيء مما يعرفه غيرك ممن علم هذا الشيء

أما مسألة إنكار المعجزات بسبب مخالفتها لما اعتاده الناس فهي من السخافة بمكان . نعم إن سنن الله تعالى في هذا العالم لا تتبدل ولا تتغير كما نطق به القرآن الشريف في عدة مواضع منه ولكن خرق العادة ليس خرقا للسنة فان من سنة الله إيجاد الشواذ في كثير من الاشياء المعتادة إذا اقتضت حكمته ذلك . ولذلك نشاهد في عالمي الحيوان والنبات من الشواذ التي يسمونها (الفلتات الطبيعية) ما يصعب حصره وما قال أحد بأن هذه الشواذ خارقة لسنن الكون ونواميس الوجود وإن كانت خارقة للمعتاد . ولو سألتهم عن حكمة وجودها أو عن كيفية خلقتها لعجزوا عن الجواب . أما نحن فنقول إن الحكمة في وجود مثل هذه الاشياء الشاذة هي أن الله تعالى يريد أن يرينا شيئا من مبلغ قدرته وعظمته وأن قدرته تعالى لا تقف عند الحد الذي عهدناه بل هي أوسع من أن تحيط بها مداركنا وأما كيفية خلق هذه الشواذ والعلل المباشرة لتوليدها فانا نجهلها الآن كال الجهل وربما علمنا عنها شيئا في المستقبل . كذلك نحن نعلم حكمة إيجاد الله تعالى للمعجزات وهي أنها تخيف الناس وتلجئهم إلى الاحتماء بالانبياء فيتعلقون بهم ويؤمنون لهم ويتبعونهم فتصلح حالهم . وتنفرهم من أعمال السحرة والمشعوذين وتبعدهم عنهم . ولكننا إلى الآن لا يمكننا أن نفهم كيفية إيجادها ولا الأسباب التي تنشئها وغاية ما نقول إنه هكذا أوجدتها القدرة الإلهية كما يقول الطبيعي عن الشواذ هكذا وجدت وإن كان عقله لا يدرك كيفية وجودها .

قد يقول قائل إن هناك فرقا عظيما بين المعجزات وبين هذه الشواذ الطبيعية التي اتخذتها مثالا لها فالمعجزات لا يشاهدها أحد الآن بخلاف الشواذ فانها تشاهد كل يوم فان كانت المعجزات حقيقية وجارية على سنن الكون فلم انقطعت الآن ؟؟ ونقول أما انقطاع المعجزات فهو لانقضاء زمن الأنبياء ولو وجد داع لها الآن لوجدت كما أن كثيرا من الشواذ في العالم الطبيعي قد انقرضت الآن لانقراض الحيوانات والنباتات التي كانت تظهر فيها . فكأن سنة الله تعالى في هذا العالم هي أنه إذا وجدت الحكمة لظهور المعجزات تظهر

ولو وجدت بعض الانواع من الحيوانات والنباتات البائدة لوجد فيها من الشواذ المخصوصة في خلقتها وكيفية معيشتها مايدهشنا الآن ويعد من العجائب والغرائب. وقد كانت الاحياء في مبدأ أمرها تتولد من الجمادات مباشرة وهو ما يسمونه (التولد الذاتي) وقامت البراهين القطعية على ذلك والآن لا يوجد شيء منه مطلقا فلم لا ينكره المنكرون لانقضاء عهده الآن كما انقضى زمن المعجزات ؟ إن هذا لامر عجاب ! !

بقيت كلمة واحدة تتمة لهذا الموضوع وهي أننا قلنا فيما سبق ما معناه إن الله تعالى كان يؤدب الأمم السابقة ببعض أنواع من العقوبات المادية كالخسف والمسخ والقحط فهل ما يقع الآن بالأمم من ذلك هو جزاء لهم على أعمالهم أم لا ؟

الجواب — إن ما يفهم من القرآن الشريف هو أن ما يقع بالأمم من المصائب المهلكة هو عقوبة لهم على أعمالهم (وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) وكذلك ما يصيب الاشخاص من المصائب هو في الغالب جزاء لهم على ذنب ارتكبوه (إن ربك لبالمرصاد) (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) ولكن لا يفهم من ذلك أن جميع المصائب هي بسبب ما كسبه الانسان بل إن ذلك بحسب الغالب. فان الآية لا تدل على التعميم وإذا فهم منها العموم فانه يخصص بمثل قوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات) الآية. أي إن بعض المصائب قد يراد بها الاختبار أو غيره لا العقوبة كما أن قوله تعالى (وأوتيت من كل شيء) لا يراد به ظاهره مع أنه أصرح في إفادة الكلية من قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة) الآية. فالله تعالى لم يترك البشر في هذا الطور (طور العلم والعقل) بدون مراقبة ومجازاة لهم على أعمالهم كلا ! ! بل هو أرحم من الأب الحكيم لا يترك أبناءه إذا كبروا بدون تأديب لهم إذا كثر إجرامهم بل قد يتداخل في أمورهم ويعاقبهم على ما يجرمون. فلا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون.

(المنار) اتبع الدكتور فيما ذكر من ترقي الدين رسالة التوحيد وهذا هو الاصل في نسخ الشرائع الذي يحتج به عليه الشيخ صالح اللبافي في الرسالة التي بعد هذه وهو لا ينكره. ويرد عليه ان الخوارق لم تنقطع ولكنها لم تعد حجة للدين في هذا العصر كالعصور الأولى